تكريم النوابغ العاملين

علي ابراهيم باشا

للاستاذ اميده السيفي

— ١ —

علي ابراهيم — لحضرة صاحب المعالي

والجبل الجريح — يعني الذين بركات باشا

حضرات السادة المحترمين : من أروح الأشياء الى نفسي ان يكون من نصيبي القاء كلمة عن أخي وصديقي حضرة صاحب المعالي الدكتور علي ابراهيم باشا . فلقد جمعتني به صلة الوطن الأصغر أعني تلك القرية الصغيرة منية المرشد حيث ولدت وحيث ولد أبي وجدي وحيث ولد المرحوم ابراهيم افندي عطا والد الدكتور علي ابراهيم . ولقد كان من حظي أن أتعرف بهذا الوالد وان أرى ما كان عليه من شهامة وعلو نفس وبنية قوية جملته يظهر في عنفوان القوة مع أنه كان قد جاوز الثمانين أو جاوزها . ولست أشك ان ولده الصبي علي ابراهيم ورث عن هذا الأب الحرية والاقدام ، فكان ذلك الصبي منذ ان بدأ دراسته الابتدائية في سنة ١٨٨٨ الى ان حاز شهادة البكالوريا سنة ١٨٩٧ فدبلوم الطب سنة ١٩٠١ مثال الشاب النابه الناجح . فكان دائماً الأول بين أقرانه كما كان الأول في الشهادة الابتدائية والأول في الشهادة الثانوية بأجمعها ، والأول في الدبلوم . ثم صار يتدرج في مناصب الدولة حتى وصل الى أرقاها ونال من الدرجات السنية والنياشين المصرية والأجنبية ما جعله في الصف الأول منها جميعاً مما يملأ ثلاث صفحات كاملة ستطلعون عليها بأجمعها

وحسبي أيها السادة اذا قصرت كلامي على تلك الصفحة وحدها أكون قد ظلمت التاريخ وظلمت صديقي المحتفل به وظلمت نفسي . فهذه الصفحة وان كانت صفحة فخار إلا أن لها انظار في كثيرين . وما الناحية التي يسطع نورها ويتلألأ ضياؤها في علي ابراهيم فهي عبقريته النادرة في فن الطب وحبه لهذا الفن حباً بلغ منه محل العبادة والتقديس . ولا يحسبن أحد من حضرات الصديقات الآنسات أني سأجنف على حقهن في هذا . فلن أتعدى بعض كلمات من الوجهة العامة

عرفت علي ابراهيم عقب أن غادر أسيوط وجاء الى القاهرة مساعداً لاستاذ الجراحة في قصر العيني بعد أن كان له اسم عريض ملأ كل نواحي الوجه القبلي حتى لقب بعلي ابراهيم الأسيوطي

جاء الى مصر ووراءه جميع أهل الصعيد لا يثقون الا به ولا يطمئنون الا لمشورته. وكانت البلاد في هذا الحين قد انطبع في نفسها اليأس . فقدت الثقة بالمصريين لأنهم مصريون . وكانت الأسر الغنية وصاحبة الجاه لا تعتمد الا على الاجانب وحدهم. ولكن عبقرية علي ابراهيم سمحت له بالاستثناء . فهل اطمأنت تلك النفس الكبيرة الى تلك الحال أو رضيت بهذا النصيب أو ارتاحت الى أن يكون صاحبها وحده هو المستأثر بهذا الامتياز ؟ كلاَّ . فان علي ابراهيم لم يهدأ بالاً ولم يطمئن نفساً حتى شقَّ الطريق جميع من توسم فيهم الخير من زملائه واصدقائه. وما زال يجاهد ويناضل حتى وضع المصري في صف الأجنبي ثم خطا به الى الأمام فخلق روح الثقة بيننا وعمل على ان يصل الطبيب المصري بجده وعمله وجهه لفنه كما تصل الأمم الراقية والشعوب التي وصلت الى أعلى درجات الفن . حتى رأينا في البلاد انقساماً وتخاذلاً في جميع الصفوف ولكن علي ابراهيم — مع ما كان له من رأي معروف في السياسة — واصدقاء علي ابراهيم ظلوا وحدهم موضع الثقة من اصدقائهم وخصومهم على السواء . وكانت الثقة تذهب الى حد أن علي ابراهيم كان موضع سر الخصمين الشيقين والعدوين اللدودين في وقت واحد

ذلك درس في تقديس الواجب أرجو ان يتعلمه غير الأطباء على استاذ الطب الاكبر وان يتدبروه . انهم ان فعلوا ذلك خدموا انفسهم وبلادهم أصدق خدمة

أذكر ناحية اخرى . . . . . كنا جماعة من شباب العصر نجتمع مع علي ابراهيم وكان الكثير منا يعنى بلباسه وبما يجلبهُ من باريس ولندن . اما علي ابراهيم فكان يجلس معنا مفاخراً مباهياً طوراً بلهجة الجد واخرى بلهجة الدعابة الظريفة بما يشتري من مصنوعات شرقية وما يلبس من لباس مصري . فأقمصته من حرير دمياط وبدلته من أحد عبد الرحمن وخفه من قطع السجاد الشرقي النادرة . ولغتهُ هي لغة الأدب العربي حتى أن الكثيرين ممن أسوأ مجلسه كان يحبون بلغة هذا العبقري ويدهشون لما يجدونهُ عنده من الاطلاع في الآداب العربية . كل ذلك مع عذوبة في اللفظ ورقة في الاخلاق حتى أنك عند ما تستشيره في مسألة من أعوص المسائل الطبية تجده يثلث عنها بلغة سهلة وأسلوب واضح ويضع أمامك الجسم الانساني فترى أدق أجزائه كيف يعمل وأعقد وظائفه كيف يقوم بها من غير عناء ولا إجهاد

أيها السادة : — هذه بعض نواحي عبقرية علي ابراهيم أرجو أن أكون كشفت بها للجيل الجديد . فهو وان شاهد آثارها لا يعرف كيف نشأت . وإني إذ أختم منبر الخطابة

أرجو أن يدرس شبابنا تلك الشخصية الفذة إذن خطو بلادهم وخدموا أنفسهم أحسن الخدمات كما أرجو أن يمد الله في عمر ابنتنا وأن يجعله على الدوام مثلاً يقتدى وسراً يهتدى وضوءاً يسطع في الظلمات

— ٢ —

على ابراهيم — حضرة صاحب السعادة

وكيل الطب — الدكتور نجيب محفوظ باشا

سيدي وسادتي : في اليوم الثلاثين من شهر ابريل سنة ١٩٢٩ عقد مجلس كلية الطب جلسة خاصة لانتخاب عميد للكلية بحضور المستر مادن . وكانت تقاليد المدرسة الى ذلك الحين تقتضي ان يكون العميد انكليزياً ولكن على الرغم من ان المجلس كان مصمماً تقريباً من الانكليز قرر باجماع الآراء انتخاب علي بك ابراهيم عميداً للكلية ووافق على نص القرار الآتي الذي قدمه أحد أعضاء المجلس وهو : « تقديراً لما أظهره علي بك ابراهيم من المقدرة الخارقة للعادة في ادارة الكلية وتنظيمها في المدة التي كان شاغلاً فيها وظيفة وكيل للعميد واعترافاً بالجهود العظيمة التي بذلها في إعادة تنظيم الكلية وفي نجاحها المطرد في العشرين عاماً الماضية رأى المجلس ان مصلحة الكلية والتعليم الطبي في مصر يقضيان بأن ينتخب عميداً للكلية »

ومنذ ذلك التاريخ أخذ علي باشا على عاتقه ذلك العبء الثقيل فنهض بالمدرسة والمستشفيات ذلك النهوض المدهش الذي كان موضع اعجاب القريب والبعيد . وما كان من المستحيل عليَّ في الدقائق القليلة المخصصة لي ان أفي عهد علي بك في القيادة حقه من البيان فسأكتفي بسرد بعض الحقائق عن فترة ثلاث لا أرى محيصاً من الكلام عنها . وهذه النقط هي : « المباني » « وتحسير هيئة التدريس » « وشخصية علي باشا كعميد »

أما عن المباني فاذا شئنا ان ندرك شيئاً من مدى الاصلاح والتحسين الذين تما في عهده الجدير بنا ان نرجع الى الوراء اثنتي عشرة سنة ونقارن بين ما كانت حالة المدرسة والمستشفى في ذلك الحين وما آلت اليه اليوم

كانت الكلية عندما تولى علي باشا ادارتها قد أصبحت موضع عيد في الرقي العلمي والفني حتى بلغت من الشهرة العلمية قدراً كبيراً . ولكن من حيث المباني لم تكن في الفضاء اللائق بها المعدن لقدمها التعليمي والسني فكانت العيادة الخارجية مؤلفة من بضع غرف مقامة فوق مخبط بسرداب مظلم وضمت فيه بعض مقاعد للمرضى . وكان هؤلاء المرضى في هذا السرداب المظلم يجعل مرور الأطباء الى أقسامهم المختلفة مهمة يعانون فيها أشد حساب كل صباح . حتى اذا

وصلو الى أقسامهم علقوا ملابسهم الخارجية على مسامير مدقوقة في الحائط بحيث تصبح مرتعاً لما يصل اليها من ملابس المرضى من صنوف الحشرات وكانت هذه الحال سبباً في اصابة عدد لا يستهان به من أطباء المستشفى بالتيفوس وغيره من الامراض

اما عنابر المستشفى فكانت تكتظ بالمرضى الذين كانوا يكدسون فيها تكديساً تكاد عواقبهُ تكون شديدة المرارة لولا ما اظهرت طائفة الممرضات من مصريات وانكليزيات من التفاني في المحافظة على المستوى الصحي

اما دار المدرسة فلم تكن احسن حالاً . فكانت معاملها ومتاحفها وحجر التدريس فيها قليلة العدد والاتساع على الاساتذة والطلبة فضلاً عن ان استعدادها للتدريس والتمرين لم يكن كافياً لحاجة الطلاب . اما اليوم فقد تبدلت الحال وبلغت المدرسة والمستشفيات شأواً يضاهي خير ما يشاهد في اوقى الممالك الاوربية . فقد اصبح في الكلية من المعامل العظيمة وأبهاء التدريس الرحبة ما يفخر به حقاً ناهيك عن المتاحف المتعددة البالغة حد الاتقان والتي لو جمعت في مكان واحد لألفت مجموعة من أكبر وأهم مجموعات المتاحف في العالم أجمع . وفي استطاعتي ان أؤكد لحضراتكم أنهُ لولا النفوذ الشخصي الذي كان يتمتع به علي باشا لدى الحكومات المتعاقبة على اختلاف أنواعها السياسية لما تعد شيء من هذه الاصلاحات ولما تم بناء ذلك المستشفى الفخم مستشفى فؤاد الاول الذي يعد بحق في طليعة مستشفيات العالم

أما عن تعمير هيئة التدريس بكلية الطب فلا أغالي مبالغاً اذا قلت ان ما اظهره علي باشا من بعد النظر وحصافة الرأي في اعداد المصريين لتولي شئونهم بأنفسهم جدير بكل اعجاب . فقد تولى ادارة الكلية وليس بين اساتذتها الا ثلاثة مصريين ثم تركها وليس بين اساتذتها من الأجانب الا اربعة . وقد تم كل هذا من غير اخلال بمستوى التعليم او بكفاءة المدرسين . فقد كان سبيله الى هذا مطروقاً يتحلى الحكمة وبعد النظر فقد تولاه العناية ارسل من البعثات في كل فروع الطب ضعفي العدد اللازم لمقتضيات التدريس في ذلك الحين . فلما عاد طلبة البعثات الناجحون ألحقهم بمناصب التدريس الصغيرة يشرفون فيها تحت ارشاد الاساتذة حتى اذا سنحت الفرصة رقي منهم من ثبتت كفاءتهُ رقيًّا تدريجيًّا بلا طفرة ولا تعجل وكان من محاسن التوفيق ان نضوجهم وقت اكتمال مباني مستشفى فؤاد الأول . فلما ضوعف عدد الأقسام وزيد عدد الطلبة الى ضعفيه وجد من الأساتذة المصريين ومن المساعدين الاكفاء من سدوا الفراغ من غير احتياج الى الاستعانة بعناصر اجنبية . وكان علي باشا يجعل للبحوث العلمية المقام الأول فيحرّض هيئة التدريس على القيام بها ويعضد الناجحين منهم ولا شك في انهُ كان خير قدوة لهم بما كان يقوم هو نفسه به من البحوث النفيسة . وكان لعلي باشا مثل ما لغيره من العادة الاعتداد بنفسه

ثاقب ورأي خاص في تقدير الكفاءات التي يمتاز بها العاملون تحت ادارته ولم يكن يدخر وسعاً في تهيئة التسهيلات امام من كان يوليهم ثقته حتى يتاح لهم ان يصلوا بحسن رعايته الى المركز الذي يستطيعون فيه ان يخدموا العلم والتعليم بما يتوسمه فيهم من الكفاءة والأهلية

ومن أجل الخدمات التي أداها علي باشا للعلم في مصر والشرق أجمع تسهيله وسائل الدراسات الطب في كل فرع من فروع الطب وقد لاءم هذه الدراسات في أول عهدها شيء غير قليل من الارتياك يرجع السبب فيه الى الصعوبات التي وجدت في الحاق الأطباء من موظفي الحكومة بها على انه منذ تولى علي باشا وزارة الصحة أخذت هذه الدراسات حياة جديدة تبشر بمستقبل حسن ان شاء الله

سيداتي وسادتي : كان عصر علي باشا بلا نزاع عصر الكلية الذهبي وليس غلواً ان أقول ان علي باشا هو مؤسس المدرسة الحديثة وانه استطاع أن يحرك القوة الكامنة في هيئة التدريس بها وان يجسمها في نهضة مباركة سارت بالمدرسة الى الأمام سيراً حثيثاً . ومما ساعد علي باشا على بلوغ هذا النجاح تلك الثورة الفكرية التي صاحبت الانقلاب السياسي منذ سنة ١٩١٩ والنهضة القومية التي تفتحت في نفوس المصريين مما هيأ لآرائه ومشروعاته بيئة خصبة تأتت تأتياً حسناً

وقد نجحت مقدرة علي باشا بصفة خاصة في ادارته لمجلس الكلية بما اظهره من حصافة الرأي وبعد النظر في الأمور ومقدرة فائقة في التوفيق بين عناصر المجلس المتباينة . وقد جعل من المجلس اداة هيئة التدريس من الأعضاء فقد كان يأنس بآرائهم ومناقشاتهم . ولم يكن يقرر خطة في الأمور الهامة الا بعد تفكير عميق . فاذا لم تصادف آراؤه موافقة المجلس فلا يفارقه حلمه مهما تشتد الحملة على رأيه . ولكنه وهو السياسي الخالق كان يعمد الى الأساليب الدبلوماسية التي له فيها القدح المعلى فيفتحي طريقاً وسطاً بينه وبين معارضيه ، ثم يراجع بعد ذلك نقط الضعف في آرائهم بقوة حجته وسرعة بديهته وكثيراً ما كانت دعابة من دعاباته الفريدة ونكتة من نكاته الحاضرة سبباً في تهدئة جو مشحون بالجدة فتحول المناقشات الحادة الى حوار هادىء منتج يظفر منه في كثير من الأحوال بكل ما يريد

إن الرسالة التي أداها علي باشا لمصر في بلاغ كلية الطب الى المستوى العالمي الذي وصلت اليه الجدارة حقيقاً بكل اعجاب . ولا أظن أحداً ممن عرفوا أن سريرته في أدائها لم يكن دائماً سهلاً ممهداً ولا خالياً من العقبات والعثرات . وليس من أثر هذه العقبات شيء مما كان يوحى اليه من الحكومات على اختلاف ألوانها السياسية من التعليمات التي هي أبعد ما تكون عن مصلحة التعليم في كثير ولا قليل ، بل كانت تخضع لعوامل خارجة عن سياسة التعليم وضارة به . هنا كانت تجيء إرادته الصلبة ، وقوته التي لا تعرف الطواعية . كم مرة شاهدته في حالة نفسية مرة

يصادم الحوادث ويتلقى الصدمات بيأس شديد مؤثراً الاستقالة على الموافقة على أمر لا يتفق مع مصلحة العمل

سيدتي وسادتي : حقاً كانت مدرسة الطب موفقة في كثير ممن تولوا إدارتها أمثال كلوت وابيلي وعيسى حمدي وكيتنج . وقد كتبت اسماء بعضهم في صفحات الخالدين ، ولكن اسم علي باشا سيظل بينهم كاسم المفرد مخلداً في صفحات المجد بما ترك في الكلية من الآثار الخالدات

— ٣ —

علي ابراهيم — لحضرة صاحب العزة

وتصرفه في الجراحة — الدكتور محمد عبد الحميد بك

أفأستطيع أن أصور لحضراتكم معالي الدكتور علي ابراهيم باشا جراحاً في بضع دقائق؟ ولكن هل أنتم في حاجة الى هذا التصوير . ومصر من أقصاها الى أقصاها بل مصر بالحدود التي يتناولها الحرب الوطني ظلت تجني ثمار عبقريته الجراحية الفذة . تلك العبقرية التي يخيل لي انها فطرية . فقد كانت تبدو عليه في عنفوان شبابه علامات النبوغ والذكاء ومضاء العزيمة وبعد الهمة ورباطة الجأش والنشاط الذي جعله يدّرع التعب ولا يستريح الى فراغ

وجديرٌ بي أن أقول اني لا أستطيع الاّ أن أرسم لحضراتكم صورة مصغرة في هذه الفترة الوجيزة . ولكم أن تعتبروها مثلاً من شتى صوره الجراحية . لقد عرفته منذ نحو سبع وثلاثين سنة يوم كنت طالباً في السنة الثالثة من مدرسة الطب وكان طبيب امتياز في مستشفى قصر العيني . وفي أول مرة رأيته سمعته يقول لأحد مرضى المستشفى «اذا نجحت عملية هذا المريض والتحم جرحه بالقصد الأول أعطيتك عشرة قروش» ولا أخفي اني استنكرت منه هذا القول بل عد السخاء . وما كان أطلقني في استنكاري لأني لم أكن أدرك ما أدركته بعد ذلك اذ أصبحت طبيباً . وهو عنايته بالتعقيم . والتعقيم من أهم الأركان التي بني عليها تقدم الجراحة في العصر الحديث . وكان وقتئذٍ من المستحدثات الطبية فلم يتمسك بمبادئه وينتصم بوسائله الاّ القليل من الجراحين . وعلّ الدكتور علي ابراهيم كان من أوائل الجراحين المصريين ان لم يكن اولهم التزاماً له واستمساكاً بمبادئه واعتصاماً بوسائله . وكذلك كان الدكتور علي ابراهيم أول جراح مصري من أسرة المستشفيات الخصوصية

ذلك انه لما عاد من أسيوط الى مصر اتخذ له عيادة بشارع عابدين وجعل له فيها بعض الأسرّة لصيانة مرضاه فيها بعد اجرائه العمليات لهم مخالفاً بذلك ما جرت به عادة الجراحين من اجرائه العمليات في عياداتهم وتقضيهم معاشرةً الى بيوتهم أو اجرائها لهم في بيوتهم . فكانت عيادته كأنها مكتب والمكتب صغير كغرفة مستشفى . وسرعان ما التمست أعماله الجراحية فيها التشيف الى مستشفاه

الذي اتخذهُ في شارع الصنادقية . وهذه السنّة التي ابتدعها واتى أخذها عنهُ غيره قد تبدو لحضراتكم صغيرة الشأن ولكنها بمدة الأثر في النهضة الجراحية المصرية . ذلك لأنهُ هيأ فيه جهازاً للاشعة ومعملاً للأبحاث والتحاليل المختلفة يوم كانت مستشفيات الحكومة في الأقاليم تخلو منها فاذا دخل المريض مستشفاه خصهُ خصاً دقيقاً واستعان على حقيقه مرضه بالأشعة وبالأبحاث والتحاليل فكأنهُ كان لا يسلم الجرب على المرض الا بعد التزوي والتريث والثقة بالفور والنصر وإذا ما أعلنها تفقد سلاحهُ وقاه بتخدير المريض طبيب متوفر على التخدير وساعده جراح أو أكثر ثم قام بتمريض المريض ممرضات خبيرات . وهذه أيها السادة هي السياسة الجراحية الرشيدة لأنها جماع الوسائل أو العناصر التي تألفت منها الجراحة المصرية وهي التعقيم والتخدير والبحث العلمي وحسن التمريض . وهذا هو السر في توفيقه في أعماله ونجاحه فيها نجاحاً باهراً فطار له صيت وجرى لهُ ذكر وأقبل المرضى على مستشفاه اقبالاً عظيماً يدخلون فيه حيث أمل لهم العمليات ثم يعودون الى قواعدهم آمنين سالمين

أما كفاحه في مستشفى قصر العيني وأثره في التعليم جراحاً مدرساً وباحثاً موفقاً وأستاذاً قديراً فشريط سيطول أطول من ان أعرض على حضراتكم الآن وحسبي ان أشير اليه . ولو كان لي من الأمر شيء لسميت شارع الدكتور علي ابراهيم باشا تخليداً لذكرى هذه السنّة واعترافاً بفضله على من نالوا الشفاء على يديه الرشيقتين تلك الرشاقة الضرورية في الأعمال الجراحية . فقد قال بعضهم لا بدّ للجراح من عين النسر ورشاقة الحسناء وقلب الأسد . ولكن أين حدة بصر النسر التي يتقض بها على فريسته نيفترسها من حدة بصر علي ابراهيم وحسن بصيرته في الأمراض وتشخيصها وفي العمليات واجرائها وفي العلاج ووسائله مما نفع الناس وأنقذهم من الأمراض وآلامها . وأين رشاقة الحسناء التي تهتك بالقلوب فتؤجج النار فيها وتزيدها اشتعالاً من رشاقة يديه وهو يفتك بها بالأنسجة المريضة والأعضاء المأوفة شقاً وتشريحاً وقطعاً واستئصالاً فتدوم تلك الرشاقة الأسقام من الأجسام وتكون عليها برداً وسلاماً . وأين شجاعة الأسد من شجاعته في شتى النواحي التي يطول ذكرها . وحسبي ان أذكر منها انهُ سمح لنا بالاحتفال بعيده الستيني ونحن في زمن يتنافس فيه الرجال الكواعب الأبكار في كتم الأعمار حتى لقد يحكى عن ظريف من كبار الموظفين انهُ جلس ذات يوم بين نفر من أصحابه بعد إحالته الى المعاش فقال لهم والله يا جماعتي لم أشق على إحالتي الى المعاش الا لأن امرأتي عرفت أني بلغت الستين . وها نحن نحتفل اليوم رسمياً ان معالي الباشا قد أوفى على الستين — ولتطولها — ولعلَّ من مزايا هذا الاعلان انهُ أصبح يتأمن من مداعبته بالكبر ، وقد أصبح كبيراً . مدَّ الله في عمره ومتعهُ بالصحة والعافية ووفقهُ وزملاءهُ كافة في جراحاً وعميداً ومديراً في ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم